

رحلة في ديار الشام

في الفرقة الثامن عشر (الثاني عشر الهجري)

(الحلة الديرية في الرحلة المليية) (١)

لمصطفى البكري الصديقي

للأستاذ أحمد سامح الخالدي



كان الداعي إلى هذه الرحلة ، رغبة الشيخ مصطفى البكري في زيارة بغداد فيقول في مقدمة رحلته « كان كثيراً ما يخرج في بالي ، فيهبج أشواق ولبالي ، زيارة بغداد ورجالها الموالي . فأصد عن الشرب من نهر دجائها وقربانها ، والغرام يزيد إلى علم الشرق الفريد وساحب المذهب المذهب السعيد والكاظم (٢) وولده الوحيد ، السامي كل منهم على أقرانه ، وغيرهم من أعيان ، أرباب عيان « الخ . . . ويخص من الأعيان سلطات الأولياء سيدي عبد القادر الجيلاني (٣) ، وكان قد اتسب إلى طريقته وترأى له في المنام فزم على التوجه إلى حلب ومنها إلى بغداد ، ولكن زوج والدته منته من ذلك مخافة الحر ، وخشى نمرض العريان له بسوء . فعدل عن زيارتها ، ورأى أن يتوجه من حلب إلى زيارة مقام سلطان الزهاد ابراهيم بن آدم (٤) في جبلة ومنها إلى طرابلس الشام فيبروت فيبيت المقدس . وكان رفيقه في الطريق السيد مصطفى بن عبد الرحمن النيني (٥) وأخاه لأمه أحمد .

وقبل ما تحرك خاطر الشيخ ، لتلك المنازل العواطر ، سأل الشيخ أحمد ، فكاشفه قبل الاستشارة وصرح وما اعتنى بالإشارة .

(١) مصطفى البكري الصديقي (١٠٩٩ هـ - ١١٦٢ هـ ، ١٦٨٧ - ١٧٤٨ م . مطبوع في خزنة الكتب الخليلية بالقدس .

(٢) وإليه نسب الكاظمين وهي صاحبة من سواحي بغداد ، عدد سكانها أربعون ألفاً ، وفيها مقام الكاظم وولده .

(٣) هو أبو محمد الحلي الحلي ولد بجيلان سنة (٤٩١ هـ) وثوى (٥٦١) القطف الكبير .

(٤) توفي (١٣٦١ هـ) ودفن في جزيرة من جزر البحر في بلاد الروم بجاهداً .

(٥) نسبة إلى مدين وهي قرية خضرة بصرة شمالي جبل قاسيون . إليها سب الجوز المينى لونه قشمره ويابس قلبه . وإليها ينسب الشيخ أحمد بن علي النيني مؤلف كتاب « الإعلام بمضائل الشام » .

وجاءه في هذه الأثناء الأخ الشيخ مصطفى بن عمر الخلوقي وطلبه للولد القلبي الشيخ اسماعيل الحرساني بالدعوة والإرشاد ، وليس الكسوة على المعتاد ، فأذن له .

ثم كرر الشيخ الاستخارة في السير ، موقع الإذن بالسير يوم الجمعة امشرين خلت من شهر رجب سنة [١١٢٨ هـ - ١٧١٥ م] فتوجه وبات في قرية (القصير) ورافقه بعض الإخوان مودعين ثم سار إلى أن وصل (القُطيفة) ومنها إلى (قارة) ومنها إلى (النَبك) المشتية أهلها فيها والصفية ، ثم إلى (حمية) ومكث يومين ومنها إلى حمص (١) وهو بلد يذكر ويؤث . وأقام في جامعها الكبير ، وزار من بعيد مقام خالد بن الوليد ، مات بجمص سنة إحدى وعشرين [٦٤١ م] .

ويقول الشيخ « ولم يعثم لنا نصيب ، بدخول مدينة حمص المعجيب ، تكوينا ومزدرعاً وأمواهاً ، لأن الحراب عمها حتى فيها ظهورها تنامي ، وكان أكثر خرابها من الموالي (٢) الذين من وآلام لم يوال الموالي ، على أن فيها من الزارات والسادات الكثير وينقلب على أهلها البلاهة والتففل (٣) مع الجذ والتشمير ، ولقد دخلت جامعها الكبير فرأيت آبل إلى التعمير ، فصليت فيه الظهر والمصر ، بنفر غير كبير » .

وفارق حمص في الصباح ، ولم يسر غير قليل حتى بزغت الشمس وإذا بجيول كأنها سبيل يسيل من عرب يفسدون في الأرض دون إصلاح ، لا يعرفون صلاحاً ولا صلاحاً حتى في صلاح ، يرون نهب أموال الخلق مغناً ، وسلامة الخطار من شرم مترماً ، فانعمت القافلة كالحرف المشدد ، وانحازت القافلة إلى جهتهم بالرأي المشدد ، فعصر الحق قلوبهم وقلوا (٤) وبمد الكثرة والاجتماع تفرقوا وقلوا وهم الشيخ قرب انصرافهم

(١) كورة بالشام مشهورة ، أهلها ينيون ، قال - يوره من أحمية لذلك لم تصرف وقد تذكر . والعرب تقول « أقل من قيسي في حمص » .

(٢) قبيلة النوالي ، قبيلة كثيرة العدد تضررت في صحراء سوريا ، ولها بطون كثيرة ، وإليها ينسب آل العابد في دمشق وآل طوقان في جبل بلس ، وآل أبو ريشة في حلب .

(٣) هذا قول عاملاً يعتقد على أساس ولعل ذلك من آثار اختلاف النيسيين واليبيين .

(٤) قال النورم كسرهم وهزمهم . تعال النورم انكسروا . ونورم فل أي منهزمون .

عليه الطلعة ، وبعد ثلاثة أيام نزل إلى خلوة في المادية . وكان الوصول إلى حلب في أوائل شعبان المبارك .

وبعد أيام جاءه رفيق السفر السيد مصطفي النبيي يرجوه بالحاج أن يمدح مفتي الديار الحلبية أبي السمود السكواكبي . فتردد الشيخ ساراً من الظهور ولكنه نزل على إصرار رفيقه فقال :

سما الدنا قد زينت بالسكواكب كازينت الغبرا بيت السكواكبي
أما س لهم في ذورة المجد منزل يجبل وبملو فوق كل المراتب الخ
وقد سر بها المفتي ، ودعا الشيخ إلى داره ولما استقر به القيام
جاءه عمر أفندي النقيب وسأل عنه ، وعن ابن عم الشيخ ،
وسبب تغير مزاجه ، وكان قد اجتمع به لما أتى مع أعيان الشام
للاقتلاة الشيخ مراد ، فأجابيه أن هذا الأمر أخبر عنه الشيخ
عبد الغني النابلسي . ثم استفسر عن قضية الدرهم التي طلبت منه
بزمان ، فأخص له القصة وأنها كانت زوراً وبهتاناً ، ومن جملة
الشهود على أنها باطلة الشيخ عبد الغني ، وأعيان الشام وقد أعلم
الشيخ المذكور الوزير بالقضية في مكتوب كبير لجساء
المفوض ، وقبول شهادته . ولم يجتمع الشيخ البكري بالمفتي إلا في
العيد بعد الصيام ، وكان يتردد وهو في حلب على تكية الشيخ
أبي بكر بن أبي الوفا ، وليس في خارج حلب أثره من تكيته
وأنجب ، ولذا قيل فيها صالحية^(١) حلب واصطحب معه شيخ
التكية ، الشيخ علي ، وتردد عليه ساراً ، وعرض هو والدادة^(٢)
على ، وعوفي المذكور وتوفي الدادة . وطلب الشيخ مصطفي
النبيي رفيقه في الطريق الرجوع ، فكتب الشيخ كتاباً إلى
الشيخ اسماعيل الحرساني وطلب منه أن يسلم له على الحاج إبراهيم
الدكائي ويستدعيه فلما حضر ، أذن للشيخ مصطفي بالسفر .

ومن زاره في حلب الحاج علي السكرجي « وطلب منه

(١) الخلة المروعة يمشق ، ترها بنو قنامة لا هاجروا من جماعيل
(جيل نابلس) في أيام الحروب الصليبية .

(٢) الدادا كلمة معرفة عن كلمة (داية) ، أطلقت في عصور
البياسيين على المرني والمرية . وفي كتاب أخبار أبي نواس الجزء الأول
لأبن منظور صاحب كتاب لسان العرب ، ذكر لرجل قال أنه كان (دايني)
ويحتمل أن تكون (الدادة) معرفة عن الدادا . والدادا معناه اللب ولأن
المرني والزاعي للفقولة شأنه أن يأخذ الطلل بالنليب واسمه دده وتصحفت
فاشمت دادا ، والدادة في التركيبة المرني وهي من المعطولات الموفية .

رائحة قرنفل فقال « قرن فل ربيهم » فولوا ، ولم يحصلوا على
ما أملوا ، وأصابهم من الله ضيراً ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم
لم ينالوا خيراً ، وعند قرب جسر الدستن كرف^(١) ورداً ، فقال
الشيخ وراد فإذا قافلة تكعد كعداً » .

وفي قرية الرستن مرقد الإمام أبي يزيد طيفور بن عيسى
الطاوي^(٢) ، والمذكور له مشيخة على الشيخ ، فقرأ له الفاتحة .
وقرب المعسر وصل حماة ، ونزل في جامع مطل على العاصي .
وسأل الشيخ من أهل البلد عن سبب خراب ديرتها ، فقالوا له
قبيلة العرب الموالي التي تنفر الطبايع من سببها . وقد أشجاه
صوت نواخيرها الساسي ، وأبكاها مرأ إذا أبكاها جهراً نذكر
صريع صريع وطنه الساسي ، غير أن نواخيرها صغيرة ، وهذه كثيرة
كبيرة ، وأنشد بيت الصلاح الصفدي :

إبدي لنا الدولاب قولاً معجباً لما رأنا قادمين إليه
إني من العجب المعجب كآثر قلبني مني وأنا أدور عليه
قال في القاموس : العاصي العرق لا يرقأ ونهر حماه واسمه
الباس والقلوب ، لقب به لمصيانه فإنه لا يرقأ إلا بالنواخير .

وسار إلى الحطة ونزل على العاصي ، قرب ناعورة نسق
مروجاً أنيقة فنبتت النبات الحسن النهج والطريقة ، وفي الصباح
سار يقطع البطاح ، ويوصل الليل بالنهار من السهاد ، وكان قد
وصل إليه كتاب من بعض الأحاب ، صدره به :

يا نسيماً هب من وادي قبا خبرينا كيف حال الغريا
كم سألنا الدهر أن يجمعنا مثل ما كنا عليه فأبي
وتوجه نحو (الدرة) ، وهي على مرحلتين من حلب فبات
بها ، ثم سار إلى قرية (سرمين) المحتوية على الألوف لا الشين ،
ونزل في جامعها الحصين وسار ليلاً قاصداً حلب وشهباء ، وأصابه
عطش لفيظ وحر ، حتى وصل سبيل المرأة المرحومة ، فشرب
وشرب القافلة ، وكان معه أخوه لأمه أحد فسبغه مملأ والده
الحاج إبراهيم الطويل ، فأخذته إلى بيته في القلعة ، وكانت تصعب

(١) شم .

(٢) إليه نسب الطريقة البدائية ، من رجال القرن الثالث
(٢٦١ هـ) مقامه في جبل سنام . وله في الهندس زاوية وكذلك في
الرملة . وإليه ينتسب آل النعيب في الرملة وغزة ولد . وم شيوخ طريفته
في الرملة .

أحمد (١) وهو ابن عم مولاي اسماعيل ملك المغرب ، ينتهي نسبهم إلى سيدي عبد الله المحض ، قد ورد إلى طرابلس من بيت القدس ، ولم يكن الشيخ قد اجتمع به قبل ذلك ، فأرسل يطلب الاجتماع بالشيخ فسر به ولكنه لم يطل الإقامة ، وكرر الزيارة . وذهب الشيخ بعد ذلك إلى قرية (المنية) لزيارة مقام النبي يوشع ، وقرائه الأوراد ، واصطحب معه زمرة من أفاضلها كالسيد علي ابن دبوس ، وأخيه السيد محمد والسيد أحمد المفتي ، ومن بيت السيري ، الشيخ أبي حامد الممرى ، ومن أولاد السيري الشيخ عمر .

وأكثر الشيخ التافلاتي التردد على الشيخ ، وكذلك الشيخ عبد الله ، وتردد الشيخ عليه في المدرسة التي نزل منها في سوق الحدادين ، وتوجه المنية غير مرة وبات لدى الشيخ عامر الصميدى . وورد عليه كتاب من الشيخ أحمد الميقاتي بالقدس ، يبلغه حلول دار السلامة بسلامة ، وضمنه سؤال طويل ، عن بيت سيدي عمر الفارض الذي يقول في مطلعته : (أروم وقد طال المدى ، منك نظرة) فأجابه برسالة سماها [رفع السير والردا عن معنى قول الماروف أروم وقد طال المدى] . ثم كروا على زيارة يوشع بن نون ، للوداع ، وصحب كل واحد منهم زاد قناق ، وجاء السيد محمد بن أحمد التافلاتي بصحن كبير من المغربية ماله نظير فأكلوا بعد الشبع . وبعد العشاء أقاموا مجلساً ذكر وكان الحادى الأخ الحاج ابراهيم الحارستاني ، وغيره ممن صحب الشيخ في سيره الرباني .

وفي أول جمادى الثاني عزم الشيخ على التوجه للقدس ، ولم ينشج صدره إلا للتوجه في البر دون البحر ، فبات ليلة الوداع عنده الشيخ مصطفي بن الشيخ سليمان الرقاعي ، والسيد مصطفي القلا ، والشيخ عبد الله وجماعته ، وكانوا قد تجمعوا فوق التلّين ، وتوجه الشيخ إلى بيروت وقطع نهر الديمور (٢) ، ونزل في جامعها الكبير المعمور ، ودعاها الشيخ مصطفي الحبيجي الشامي وصار بعد الظهر بصيداً ، وقطع جسر نهر الكلب (٣) ليلاً ،

الخلوة ، وربما الذكر يوم الفتوة « فأنا له مأموله ، ولست مصحبه معه إلى (الخلوة) يحضر ذكر السيد محمد ، خليفة الشيخ قائم الخاني وكان المذند الشيخ حسن ، وكان ينشد أبيات سيدي أحمد ابن عبد الله الإسكندري ولا وصل إلى قوله :

أنا الذنب الخطاء والعفو واسم ولو لم يكن ذنب لا حسن العفو فبكي وأبكي الحاضرين . وكان الشيخ يتردد على هذا المجلس لالتماس البركة مستعملاً الذكر القلبي الخالي عن الحركة ويقول عن أهل حلب والمهدة عليه « رأيت في هذه الكثرة أن أهل حلب عندهم رقة وخلاعة بالرة ، وأنهم أخلع من أهل الشام للعداء (١) وأشجع في تناول أفداح الزرام لوجد تار ، وأهل الشام أجلد في السير وأخذ في طلب المير (٢) لأرض الخير ، فإني كنت أراهم عند سماع الأشعار الدبجية في رمضان يبكون ولدى قراءة القرآن لهم خشوع وسكون » (١)

والسمع زوج والدته الحاج ابراهيم الطويل بنية الشيخ زيارة بغداد منته وأقسم عليه ، خوفاً من الحر ومن شر الربان . فزم على زيارته سلطان الزهاد ابراهيم بن آدم . فتوجه في منتصف شوال إلى تلك الحال ، وسار إلى قرية (كفتيين) وهي من قرى طرابلس الشام ، وهم ليسوا من أهل السنة ، ينظرون نزول الحاكم بأمر الله ، ووصل (جبله) وزار مقام ابراهيم بن آدم وأقام هناك ذكراً .

وسار في اليوم الخامس والعشرين من رجب وصار على طرسوس ، ورأى قلعة ارواد ، وجاء الرفاق منها زاد ، وشاهد قلعة المرقب النيمة ، وبات قريباً من البلد في مكان تزيه يقال له بركة البداوى . وقدم إليه الشيخ مصطفي القلا ونزل مدرسة الحدادين ثم خلوة الجسر المكين ، ثم القادرية البهية ، واختل بها عشر ذى الحجة . وكان الشيخ عبد الله الخليلي المهدي يتردد عليه ، ومدرسة الحدادين قريبة من دار السيد مصطفي القلا ، وانضم إليهم الحاج محمد بن الحاج موسى المطار ، ثم الشيخ مصطفي الرقاعي ودعا له تار ، وطلب الطريق وتيمه الشيخ عامر الصميدى ، وكان لا يفتك عن قرائه الأوراد الأول في نكيتته ، والثاني في (المنية) في مسجده عند جماعته .

وكان جناب الصديق السيد محمد التافلاتي نجل مولاي

(١) هو مفتي الحنفية في القدس (١١٩٢ هـ)

(٢) نهر العامور جنوب بيروت ، ونهر الكلب شمال بيروت

وليل الشيخ أمم بالجمع .

(٣) هو نهر التامين

الغابة (١) ليلاً خوفاً من الطير (٢) وجاءه هناك الشيخ رضوان الزاوي ومعه كبكبة (٣) من أهل الورد ، فبات ليلة طيبة ، وسار على طريق الطواحين وأقل لشدة الحروبات في (الزاوية) عند رضوان ، ودعاه إلى (مسحاً) (٤) الشيخ طه ، ومنها إلى (بديا) ثم (سرطا) فتلقاه بها مصلح بن صلاح الدين وزار الوالي المشهور فيها الشيخ عبد الله . ثم أتى (كفر عين) ونزل عند مقام الميمس ، وفي أواخر جمادى الثاني دخل بيت القدس ونزل في الخلوة البيرومية القوقانية (٥) . وتزد على دار الشيخ نور الدين الهوارى . وفي أوائل شعبان وصل جناب الشيخ محمد الخليلي (٦) وصحبته ، الشيخ اسماعيل بن جابر بن رجب الدبيل بن أحمد البغدادي ، وكان أرسل للشيخ محمد من حلب كتاباً مسدوداً بقصيدة يمارض فيها قصيدة شيخه ، الشيخ عبد النبي النابلسي :
سرفنا عنان الغزم عن غيرها صرفاً

وقدنا إليها نحسنى خرما سرفناً
كما أرسل له من طرابلس الشام ثلاثة كتب (٧) ضمنها
أكثر من قصيدة . وانتقل في أول رمضان من البيرومية إلى
خلوة جابر الله (٨)

(البيضة في الممد الغادم) أحمد سامح الخالدي

- (١) كانت هذه المنطقة مكدوة بالأشجار خطرة اللات .
- (٢) التطير والتشائم .
- (٣) الجماعة .
- (٤) قرية جنوب غربي سرطا .
- (٥) نسبة إلى الأمير بإبرام جاويش بن مصطفى تون (٩٤٧ هـ)
- (٦) منى الشافعية بالديار المقدسية ، وصديق الشيخ البكري وأستاذه ورفيقه في الرحلة المصرية ، صاحب الفتاوى الخليلية توفي (١١٤٩ هـ) .
- (٧) يستعمل من كثرة الرسائل والكتب التي كان يرسلها الشيخ من أمهات المدن أو يتلقاها ، على انتظام سير القوافل ووجود ما يشبه نظام بريد .
- (٨) نائبة مقدسية كانت تدير بأبي اللطف الماساري . خرج منها علماء ومفتون .

أقام فيها خمسة عشر يوماً ينتظر السير برأ فأتيسر إلا بجرأ ، فركب منها ضحوة وضل قبيل الغروب عنكا ، ونزل في جامع البحر ، واجتمع فيها بصديقه القديم الشيخ أحمد ، وسار بمد المشاء مع القافلة نحو جينين وقطع نهري النعام (١) والمقطع ثم أتى جينين وبات فيها لياليتين عند الحاج عبد الرحمن وفي سبيحة الليلة الثانية سار إلى نابلس ، وبات عند أولاد سيدي يعقوب (٢) ، وفيها هو هناك وقد عليه السيد محمد السلفيتي بغير اتفاق فسر به . وقرأ له الموشح الأول الذي نظمه ومطلعه :

إن رتموا تشربوا الحيا وتستقوا من دناب ربا
واليت يذو بالقرب حيا وفي حبيب الحشا تباهاوا
فشفقوا سمى وقولوا الله الله يا هو
والموشح الثاني ومطلعه :

بارق القرب حين لاح لعيني غبت عني وزال عني أبني
وإنحت ظمتي بذاك وغيني وشهدت الحبيب في المحراب
وقد بكى السلفيتي عند سماعهما . وارتأى عليه المنام عند
الحب الشيخ خليل الحارثي خليفة الشيخ محمد الزطاري ، فبات
في خلوته التي في المارستان (٣) ليلتين ، وبعد الشمس سار إلى
قرية (حجة) ، فتلقاه أهلها بالترحاب ، ونزل في الخلوة الرفوعة ،
وبات ليلتين ، وتوجه عشية النهار إلى (دير أسطيا) ، ورأى
مجدوبها الشيخ خاطر في بعض القرايا خاطر . وكان الشيخ وهو
في نابلس أرسل للإخوان في القدس ، خبر قدومه على الديار
ليأهبوا له محلا للزول ، وبعد صلاة المغرب سمع عن بمد سهيل
خيل ، ورأى مهاجرة ، فسأل فقيل لإخوان صفا من سكان
القدس ، وكانوا السيد أحمد الموت ونور الدين الهوارى ومعه جم
من الإخوان فسر بهم كثيراً . واقترح بعضهم زيارة سيدي علي
ابن عليل (٤) ، فوافقوا وكردوا السير إلى (كفر نكث) واجتمع
الشيخ فيها ، بالشيخ علي الرابي ، ووصل القام بعد أن دخل

(١) هو نهر النعام .

(٢) هذا المكان هو جامع شرق نابلس ويعرف بجامع الأنبياء .

بئر نبع . وهو غير بئر يعقوب قرب قرية عكر .

(٣) قرب الجامع الكبير بنابلس .

(٤) يقع مقامه شمالي بابا ويرف بيدينا على ، وهو أبو الحسن المشهور

بندالناس بابن علم . ونسبه يوصل بيدينا عمر بن الخطاب تون (٤٧٤ هـ)

عمر مشهده الحال سنة (٨٨٦ هـ) عمره أبو المون الغزي شيخ القاردي

اطلب كتاب

تولستوى